الأدب الصوفي : الدرس الثاني

مصادر الأدب الصوفي:

تأثّر التصوف بالفلسفة وعلم الكلام ،فأخذ المتصوفون في وصف أحوالهم بكثير من التحليل و التنظير ،ممّا جعلهم يستخدمون لغة غامضة تحمل معان ملتوية ، بل أصبح لديهم معجم خاص بهم يحوي ما ابتكروه من مصطلحات ،كما تشكلت لديهم مذاهب فكرية كالحلول في مدرسة الحلاج (ت309ه) ووحدة الشهود للنفري (354ه) والأنسنة و التأليه عند البسطامي (طيفور بن عيسى) (ت261ه) و الإشراق في مدرسة السهروردي (ت587ه) ووحدة الوجود عند ابن عربي (ت638ه).

لقد اتّخذ الصوفيون من الشعر والنثر وسيلتين لتمثيل هذه المذاهب منطلقين من الأفكار الآتية :

-اعتبروا أنّ كلّ جميل في الأرض هو لمحة من جمال الله وجعلوا العالم خيالا لا حقيقة ووحدوا بين ذات الإنسان وذات الله .

-تحرروا من الحواس فخدروها ، وتركوا الحرية للروح حتى تنطلق في شطحاتها.

-صغرت الأرض في خلجاتهم وانتقلوا إلى عالم أرحب تتقلص عنه الأشياء وينطفئ الحس وتفنى المادة ،بما سمّوه بالمشاهدة وهي مستمدّة من الهندية.

-اختبروا حالة عدم الوعي التي نتج عنها شعر يشبه الغمغمة وهي حالة من عجز التعبير أمام المشاهدة الكبرى (الإنطواء على خفايا الذات في ثنايا العقل الباطنة)

مصادره:

1*الشعر الديني: وهو الشعر الذي نما مع نمو الدولة الإسلامية ، فوصف الفتوحات بما فيها من شجاعة و بطولة وشدة البلاء في الحرب والأخلاق الإسلامية فيها و ما يتصل بها من إشادة بالمسلمين و مدح الرسول صلى الله عليه وسلّم ،غير أنه حاد عن هذه الطريق ، فكان من ذلك شعر التدين الذي ظهر في العصر الأموي ،حيث ميزته خاصيتان هما الوعظ والتذكير بالآخرة من جهة والحكمة و الدعوة إلى التحلي بالأخلاق من جهة أخرى.

لقد تطور شعر التدين ليزداد توغلا في الروحانية ،حيث دعا أصحابه إلى الإعراض عن الدنيا والانقطاع إلى الله و ممارسة أنواع من العبادة لم يكن للسابقين عهد بها ولم يفرضها الدين ،فنتج عن ذلك نصوص شعرية وسمت بالشعر الزهدي الذي شكلّ اللبنات الأولى للأدب الصوفي،وكان من خصائصه خلو البال من الدنيا و الآخرة لأجل لقيا الحبيب ،فكانت عبادة الصوفي حب المعبود في حين هي عند العبّاد اجتهاد في طلب المغفرة و الثواب وخوف من النار و طمع في الجنّة.

2-الرمز: وهو التعبير عن معنيين أحدهما ظاهر غير مقصود و الآخر باطن وهو مقصود ،والرمز من الأساليب الشائعة في أدب الصوفيين ،نثرهم وشعره ذلك أنّ التجربة الصوفية تجربة روحية لا يعلمها إلاّ من يعيشها و هي صعبة التصديق ،فلما كانت تجربة غير عادية وجب أن يكون لأصحابها لغة خاصة تصفها ولا يمكن فهمها إلاّ بفك شيفراتها و الاطلاع على معجمهم وأحوالهم وشروحاتهم للطرق الصوفية .

إن الحالة الوجدانية التي يعيشها الصوفي خاصة ما تعلق بالمحبة الإلهية لا يمكنه التعبير عنها صراحة لأنّ ذلك مما لا يقبله كثير من النّاس ،لذلك نجده يعبر عنها بما يستخدم لأحوال المادة والعالم المحسوس كتعبيرات الغزل المادي من خمر ووصال و شوق و هجران وما إلى ذلك.أما أسباب استخدام الرمز لدى شعراء الصوفية خاصة فتعودإلى:

-تأثرهم بالتعبير القرآني خاصة ما تعلق بالحياة في الجنّة (التعبير عن اللذائذ المعنوية في عالم الآخرة بأخرى حسية كالمساكن و الأنهار و الفاكهة وغير ذلك)

-اعتقادهم بعجز اللغة عن التعبير عن تجاربهم الصوفية وبأنّ ما عندهم أعلى من الوصف لذلك يلجؤون إلى الرمز، فكثير من أحوالهم لا يمكنهم عرضها إلاّ من خلال الرمز كقولهم الإنسان يفنى في الحق ويهلك في وجود المطلق ويصل إلى مقام الاتصال والاتحاد إذ يؤدي هذا إلى تألّه الإنسان والحلول ،فيضطرون لإخفائه بغية الأمان من اتّهام الفقهاء والعلماء .

-تعليم أسرار طرائقهم للطلاب و المريدين وهو ما جعل الصوفيين يبتكرون معجما خاصا ، لا يعرفه إلاّ أهل الطريقة او المريد الراغب في التعلّم والذي يمر بالمجاهدة التي يسلكها الصوفي في الوصول إلى ربه ،من ترويض للنفس وإغراق في التعبد ،فهذه اللغة واضحة لهؤلاء عصية على غيرهم.

لقد وجد الصوفيون وخاصة في الشعر في ميداني الخمريات والغزل منبعا غزيرا للرمز ,فعمدوا إلى الغزل الإنساني حين الكلام عن المحبوب ،وإلى الخمريات حين الكلام عن الحب نفسه.

3- الغزل :

الغزل فن من فنون الشعر العربي الغنائي استهل به الشعراء الجاهليون قصائدهم، فوصفوا حلهم وترحالهم، ثم كان منه ما هو وصف للمحاسن الجسدية من قامة وجمال الوجه و الشعر وما إلى ذلك، ثم تطور ليصبح شكلا من أشكال تعبير الشاعر عن رأيه في الحب و المرأة.

أماّ في العصر الأموي ، فقد أصبح نوعين عذري قصر فيها الشاعر حبه على امرأة واحدة ، يرى فيها عشقه الأبدي الذي لا نهاية له ، فالعلاقة بينهما روحية لا تحدّها حدود ، فسمي على اسم محبوبته كجميل بثينة وكثير عزة ومجنون ليلى ، و نوع آخر تجسيدي يستبيح فيه الشاعر كل ممنوع في سبيل التمتّع بالمرأة فهو مادي تتعدد فيه المحبوبة وتصبح وسيلة لا غاية.

وفي العصر العباسي تشكّل لغزل في ثلاثة أنماط الغزل الماجن الذي ينظر إلى المرأة نظرة غريزية مدفوعة بالشهوة تصل إلى حد الفحش ومن ممثليه أبو نواس، والغزل العفيف وهو تابع للغزل العذري من حيث اهتمامه بالجانب الروحي في العلاقة مع المحبوبة وقد التزم أصحابه بمبدأ العفة والأخلاق الشريفة، حيث انتقل من منع المجتمع لحب الشاعر (في الغزل العذري) إلى منع الشاعر نفسه ورعا وتقوى وتعففا حيث راد هذا الاتجاه العباس بن الأحنف و الشريف الرضيّ.

لقد وجد النوع الثالث وهو الغزل الصوفي في الغزل العفيف منطلقا له ،حيث نزه شعراؤه الحب من أن يكون بشريا ، ورأوا أنّه من الحري به أن يكون إلهيا ، نقيا وخالصا للمحبوب ساميا عن كل مصلحة . لقد شكلّ الغزل بنوعيه السابقين مصدرا من مصادر الأدب الصوفي، يستعير أصحابه منه الألفاظ و المعاني الدّالة على العشق خاصة ما تعلّق بالهجر و تمني الوصول و المكابدة في نيل الرضا.

ومن أمثلة التعبير بالعاطفة نحو المادي الأرضي الزائل عن الحب الإلهي العالي الأبدي، فيما يشبه المجاز أشعار ابن الفارض ، الذي يتغنى بحبه الإلهي في قوله:

أخفي الهوى ومدامعي تُبديهِ ... وأُميتهُ وصبابتي تُحييه

وَمُعذبي حُلو الشمائلِ أهيفٌ ... قد جمّعت كل المحاسن فيه

فكأنه بالحسنِ صورة يوسف ... كأنني بالحزنِ مثلُ أبيه

يامُحرقاً بالنار وَجهَ مُحِبه ... مهلاً فأن مدامعي تطفيه

أحرق بها جسدي وكل جوارحي ... واحرص على قلبي فأنك فيه

إن أنكر العشاق فيك صبابتي فأنا الهوى وابن الهوى وأبيه

4- الخمر:

كانت الخمر في الجاهلية وسيلة للهو وإقامة المتعة ،فلم يستقل بها باب من الشعر، وبمجيء الإسلام وتحريمه إيّاها ، امتنع عنها المسلمون ولكن بعضهم كان يشربها سراّ و جهرا ،وفي العصر الأموي وصفها الشعراء بعيدا عن جانبها الحسي الذي عرفت به في الجاهلية، غير أنّ العباسيين هم الذين أغرقوا وصفها في البديع و هاموا بها في فضاء الفلسفة الرحيب فخطت من تقليديتها إلى الدعوة إليها كمظهر من مظاهر التمدن إذ حمل لواء هذه الدعوة أبو نواس الذي غرف شعراء الصوفية من خمرياته لتشابه توجههم الفلسفي الوجداني ، فالسكر الجسدي وتوحد أبي نواس مع الخمرة يقابله سكر معنوي يعكس معاني الحب لدى المتصوفة ويعبر عن الفناء و الغيبة عن النفس بقوة الواردات وحدوث المشاهدة.

أخذت الخمريات الصوفية من الشعر الخمري العباسي الصور و الأخيلة وتركت ما تعلق بالمجون و الفحش ، فالسكر عندهم معنوي تشوبه الدهشة و النشوة في آن واحد ، فهي حالة من غياب الوعي (الشطحات) نتيجة انتقالهم من العالم المحسوس إلى العالم الغيبي عبر تجربتهم الصوفية الروحية الغامضة في نظر الآخر والجلية في نظر أصحابها.

من أمثلة ذلك خمريات ابن الفارض منها قوله:

وإن خطرت يوما على خاطر امرئ أقامت به الأفراح وارتحل الهمّ

ولو نظر الندمان ختم إنائها لأسكرهم من دونها ذلك الختم

ولو نضحوا منها ثرى قبر ميّت لعادت إليه الروح وانتعش الجسم